الفصل الثاني

رأيته هذا اليوم، الخامس عشر من تشرين الثاني، عند الأمير سيروجيا، فوجدته يتحدث إليه حديثا ملتهبا وعلى وجهه علائم الاضطراب والأمير يصغي إليه وهو يسير في الغرفة جيئة وذهابا. كان الأمير رجلا انطباعيا حتى السذاجة، مما كان يجدر بي إن انظر إليه من عل أحيانا. أما فيرسيلوف فكانت له موهبة خاصة لإزعاجه، متى أراد. ولكن نوعا من الخبث المقرر، كما أعيد القول، ظهر عند الأمير في الأيام الأخيرة. ولكنه مدلي يده بلطف. وهز فيرسيلوف رأسه دون أن يقطع حديثه. وجلست على الديوان.

كانا يتحدثان عن الأرستقراطية وفكرة الشرف. وأشير إلى إن هذا الموضوع كان يلح على ذهن الكونت ويرهقه رغم مظاهره التقدمية. ويذهب بي الظن إلى أن الكثير من النواحي السيئة في حياته جاءت من هنا: انتفاحه لقب أمير و شقوته بالحرمان من أسباب الثراء. وقضى العمر كله يبدد المال بدافع من الكبر والعزة المزعومة فغرق في هرة من الديون. و كان فيرسيلوف قد لمح له مرات في أحاديثه بأن فكرة الشرف لا تتجلى في مثل هذا. و كان يجهد ليوحي إليه بمفهوم اسمي. ولكن الأمير شعر أخيرا بما يجرح كرامته في هذه الدروس تعطى له بهذا الشكل.

وظهر لي بجلاء أن مشهدا مماثلا جرى بينها هذا الصباح ولم اشهد بدايته..

– إن كلمة (شرف) تعني (واجب) فعندما تسود في مجتمع ما طبقة ذات امتياز، تضحي البلاد ذات منعة وقوة. فان للطبقة السائدة مفهوما للشرف، أو بالاحرى ديانة خاصة للشرف، قد تكون خاطئة، ولكنها بمثابة ترابة تدعم بنيان الأمة. أن هذا لجزيل النفع أخلاقيا، وعلى أكثر من الفائدة من الناحية السياسية. ولكن فئة العبيد، اقصد كل الذين لا ينتمون إلى تلك الطبقة، تتراخي في هذه الحلة، و(تتعجن). وقد منحوهم المساواة في الحقوق كي لا يصيبهم هذا التعجن. وهذا ما فعلوه عندنا. وهو شيء حسن جدا. ولكن التجارب التي تمت حتى الآن في كل أنحاء أوروبا تبين لنا أن المساواة في الحقوق يتبعها تدن في عاطفة الشرف، وبالتالي الشعور بالواجب. وهكذا تحل محمية الذات مكان الفكرة القديمة التي تدعم كيان الأمة وتشد من بنيانها. وينحل كل شيء في حرية الأفراد. وفي النهاية يفقد الرجال المحررون، وقد ظلوا بلا فكرة تشد من بنيانهم كل رابطة عليا، حتى يفضي بهم ذلك إلى إهمال الدفاع عن حرياتهم.

ولكن الأرستقراطية الروسية لم تكن لتشبه يوما مثلتها في الغرب. أن طبقة الأشراف عندنا لتستطيع، حتى بعد أن فقدت امتيازاتها، أن تظل إلى يومنا هذا، نظاما عاليا قيما على الشرف والنور و الأفكار السامية، أن استطاعت بصورة خاصة، أن تنفك عن كونها طبقة مغلقة، مما تسبب في ذاته موت الفكرة.

إن ابواب الأرستقراطية تكاد تكون مفتوحة عندنا منذ زمن طويل. وقد حان لها اليوم أن تفتح على مصراعيها. فلتكن كل مأثرة. في ميدان

الشهامة والعلم والبطولة جوازا يخول صاحبه حق الانتساب إلى هذا النظام الرفيع. وهكذا تحول الطبقة من تلقاء ذاتها إلى نخبة تضم الصفوة المختارة بالمعنى الحرفي والحقيقي وليس بالمعنى القديم كطبقة ذات امتياز. وفي هذا الشكل الجديد، أو المتجدد على. الأصح، تستطيع هذه الطبقة أن تقيم لها كيانا ثابتا.

وأبان الأمير نواجذه.

– وماذا يبقى من الأرستقراطية في هذه الحالة ؟ أن ما تقترحه لنوع من محافل الماسونية. و ليس من الأرستقراطية في شيء.

وأعيد القول: إن الأمير كان مغلق الفكر بشكل رهيب.. وتحر كت على ديواني بدافع من الغيظ والامتعاض رغم إني لم أكن مؤيدا لآراء فير سياوف كل التأييد.

وأدرك فيرسم لوف ثورة الأمير فأجابه:

– لا ادري بأي معني تتحدث عن الماسونية. ولكن إذا رفض أمير روسي مثل هذه الفكرة فمعناه إن وقتها لم يحن بعد. إن فكرة الشرف والثقافة كقاعدة ساوك لمن يريد الانتساب إلى طبقة غير مغلقة ودائمة التجدد، هي بالطبع فكرة مثالية قوامها الخيال. ولكن لم تكون مستحيلة؟ يكفي أن تكون حية في بعض الروس حتى يكتب لها البقاء. إنها تبرق سناء، كالنقطة المنيرة في الظلات المدلهمة.

– انك تحب استمال هذه الكلمات: فكرة سامية، فكرة أميرة وفكرة تدعم بنيان الأمة، وغيرها، أرد إن اعرف ماذا تعني بقولك، فكرة كبيرة ؟

– لا ادري ماذا أجيبك يا أميري العزيز – قالها فيرسيلوف بتهكم خفيف – والأصح، إني غير قادر على الجواب. اعرف فقط إن الفكرة الكبيرة كانت وما تزال ذلك الذي يولد فينا ما ادعوه بالحياة الحية، يعني غير حياة الكتب والتقليد. بل على العكس الحياة المرحة البهجة والتي لا يعتريها الملل. وهكذا فان الفكرة السامية التي تنبثق عن هذه الحياة ضرورية حتما رغم نفرة الجميع منها..

– ولا هذه النفرة ؟

– ذلك أن الحياة مع الأفكار شيء ممل. فالإنسان بدون أفكار يظل في بهجة دائمة.

وبلع الأمير (قرصه).

– وما هي في رأيك هذه الحياة الحية ؟ – وكانت ثورته بادية –.

– لست ادري أيها الأمير. اعرف فقط إنها يجب أن نكون بسيطة إلى درجة متناهية وعادية تماما. وهي تقفز أمام نواظرنا كل يوم وفي كل دقيقة. بسيطة إلى درجة لا نكاد نصدق معها بأنها على مثل هذه البساطة. ونحن نمر بها بالطبع، منذ آلاف السنين، دون إن نلحظها أو نعرفها..

– كل ما اردت قوله إن فكرتك عن الأرستقراطية هي في الوقت ذاته نفي لفكرة الأرستقراطية.

– يجب أن تعلم إذن، طالما أنت تريد، أن الأرستقراطية لم يكن لها ثمة وجود عندنا قط.

– ولكن كل هذا مظلم غامض. يجب أن توضح وتوسع. و تجعد جبين الأمير. والقي على الساعة نظرة عابرة فنهض فيرسيلوف و اخذ قبعته:.

إن أوسع ؟كلا. يجمل بي ألا أوسع. ثم إن في هذا نقطة ضعفي، إني أتكلم بلا إيضاح. وأنا، حين اعمد إلى إيضاح فكرة أؤمن بها، اكف عن الإيمان بها في الغالب، عند انتهاء عرضي لها. وأخشى إن يكون هذا شأني اليوم.

إلى الملتقى أيها الأمير العزيز. إني اترك لنفسي دائما مجال الثرثرة عندك. فذنبي لا يغتفر.

وخرج. فشيعه الأمير بأدب.